الباب الثاني

في فضائلها ومنافعها

الباب الثاني

في فضائلها ومنافعها

قال الله تعالى: ﴿**ولَقَدْ آتَيْنَا موسىٰ الكتابَ وجَعَلْنا مَعَهُ أخاه هارُونَ وَزِيراً**﴾ [الفرقان: ٣٥]، خَرَج هٰذا مَخْرَجَ الامتنان في جواب سؤال موسى عليه السلام: ﴿**واجْعَلْ لي وزيراً من أهْلِي هارونَ أخِي اشْدُدْ به أَزْرِي و أشركْه في أمرِي**﴾ [طه: ٢٩-٣٢]، فالوزيرُ مُعِينُ الملِك وظهيرُه، ومدبِّر أمره ومديرُه.

وقد رُوي عن النبي ﷺ: «إذا أرادَ الله بالأمير خيراً، جعَلَ له وزيراً صالحاً»، ويُروى: «وزيرَ صِدْقٍ، إن ذَكَر أعانَه، وإنَ نَسِي ذَكَّره، وإن أرادَ به سوءاً، أو قال غير ذلك جَعَل له وزيرَ سَوْءٍ، إن نسيَ لم يُذَكِّره، وإن ذكر لم يُعِنْه».

ومما قرأت في وصايا الفرس، عَهِدَ بعضُ الملوك إلى ولده، فقال: يا بنيَّ، إنك لن تصل إلى إحكام ما تريدُ من سياسة العباد، وضبط البلاد، إلا بمعونة الوزراء، فأَعِنْهم على طاعتك بحسن مباشرتك، وجميل مكافأتك، وعلى معونتك بمساعدتك لهم بما يُغْنِيهم عن غيرك.

وقال كِسرى قُباذ: الوزير من الملِك بمنزلة بصره وسمعه وقلبه ولُبِّه، لأنه مغلق الأبواب، مُتَوارٍ عن الأبصار، فيجب أن يكون محفوظاً ملحوظاً، وعليه أن يَحْفَظَ مصالح الدولة، وضوابط المملكة، لتبقى على حسن نظامها، وجمال رَوْنَقها، ويدفع عنها الآفات العارضة التي ربما أدَّت إلى فسادها، كالطبيب

الحاذق، فإنه يشتغل بحفظ الصحة ثم بمداواة ما يَعرِضُ المجسد من خَلَل.

وقال الفضل بن سهل[١٤] مثلَ الملك العادل مع الوزير الفاضل، كالنهر العظيم الذي مشارعُه تسهله، ومَثَلِ الملك الصالح مع الوزير الطالح، مثل النهر العذب الطيب الصافي فيه التماسيحُ، لا يَنتفع به المنتفع إلا نادراً على وَجَلٍ، وكذلك الحديقة المُونِقة فيها الأسدُ.

وقال أرسطا طاليس: قد انتخب الإسكندرُ سبعة وزراء يصحبونه في سفره، ويتكلَّفون مصالح أمره، وقال لهم: إن الملك قد أشرَكَكم في ملكه، فأديموا النعمة عليكم بنُصْحه، فارفعوا دعائم الملك، وثبتوا قواعدَه، وحَصِّنوه بالعدل، وزَيِّنوه بالفَضْل، وأَصلِحوا الخَلَل قبل أن يُعجِزَكم إصلاحُه، وانتهزوا الفرص قبل فواتها، وكيف ما كان، فأنتم شركاءُ الملك، فإن ربحتموه ربحتُم، وإن خسرتموه خسرتُم، فاعملوا لكم ولغيركم، والله موفِّقُكم.

وبهذا من الكلام الجامع للفوائد الجَمّة، والنصائح التامة.

وقرأتُ في كتاب «أخبار السَّلْجُوقية»: أن السلطان مَلِكْشاه تغيّر على وزيره نِظام المُلك علي بن إسحاق[١٥]، لتقريب الأعداء، وطُول المدة، وأغراض

---

(١٤) الفضل بن سهل السرخسي (٧٧١-٨١٨م) (١٥٤-٢٠٢هـ) وزير المأمون، أسلم على يديه لأنه كان مجوسياً في الأصل. تولى الوزارة والجيش فلقب بذي الرياستين. قيل إن المأمون دس عليه من قتله وتوفي في سرخس التي ولد فيها. الزركلي - الاعلام ج٥، ص ٣٥٤.

(١٥) نظام الملك علي بن إسحق (١٠١٨ - ١٠٩٢م) (٤٠٨ - ٤٨٥هـ). هو الحسن بن علي بن إسحق الطوسي من طوس اشتغل بالأعمال السلطانية مع ألب أرسلان وكان وزيراً وعندما جاء ولده ملك شاه أصبح وزيراً وقائماً لعمله خير قيام. انظر الزركلي - ج٢، ص٢١٩.

رَديئـة كان يمنعُـه عنهـا ويَصُدُّه، فبعث إليه بخادمٍ لبيبٍ من خواصِّه يُعرَف بصَنْـدَل، وقـال له: اخْـلُ معـه، وقـل له: إنـك قد استوليتَ على بلادي، وتحكَّمتَ في المملكة أكثر من تحكُّمي، وقسمت البلاد والأعمال بين أولادك وأصهارك وغِلْمانك، ثم قد اتَّخذتَ من المدارس والرُّبَط والأوقاف ما يزيد على ثلث المملكة، ثم ما تُخرِجُه كلَّ سنة في البر والصِّلات حتى كأنك شريكي أو قَسِيمي لا باليسير حظي، فاقتصر عما أ نت عليه، واحتفظ بالأموال، واعزلْ أصهارك وأولادك عن البلاد، وإلا أطبقتُ دواتَك، وأبطلت تصرفاتِك، ولولا أني أرى حق شيخوختك وقديم خدمتك، لتجاوزت ذٰلك إلى غيره، وفعلتُه الآن. فلما مضى الخادمُ، وأدَّى إليه الرسالة، لم يرتع ولم ينزعج، وقال للخادم:

كما بَلَّغتني ما قال، فبَلِّغْه ما أقول: سَلِّمْ عليه، وقل له: تعلمُ أني شيخ كبير قد قاربَتْ شمسي الغروبَ، ولم يَبْقَ لي غرض في الدنيا لِعلمي بقرب مفـارقتها، وقد فعلتُ في مملكة والده ومملكته من الضبط وحُسن السيرة ما يعلمه الله والناسُ.

أمـا الأوقـاف والصـدقات فعليَّ تَعَبُها، وله ذِكْرُها وأَجرها، فهٰذا إن كنا منصفين، وإن كنا ظالمين فعلينا التعب والوِزْرُ، ولأربابها النعيم والأجرِ.

وأمـا أهلي وغلمـاني، فلم أُوَلِّ منهم من وَلَّيت إلا للكفاية والغَنَاءِ، لا للقرب مني، فمن قَبُحَتْ سيرتُه، عزلتُه واستبدلت به.

وأمـا قولُـه: كأنـك شريكي في ملكي، فصَـدَقَ. نعم شريكُـه وجميعُ المسلمين شركاؤه، وخصوصاً جميع جنده ورعيته، فإن المالَ مالُ الله، جعله تحت يده ليصرفه إلى مصالح عباده.

وأما رفعُ دواتي، فهٰذا إليه، ولٰكنها مقترنة بعِزَّةِ تاجِه، ودولة سريره، فلئن

تغيّرت حالُها، ليتغير ذٰلك الحالُ، والله أعلم.

فلما عاد إلى السلطان عنده الرسالة، وجَمَ لذٰلك، ولم يتكلّم بشيء، وتعجَّبَ الناس من صبره على ذلك، ثم سار إلى العراق، ودخل إلى بغدادَ، وخرج نظامُ الملك في أثره، فخرج عليه باطنيٌّ من المُلحِدة فقتله في العاشر من شهر رمضان، وأما السلطان، فإنه مَرِضَ ببغداد، ومات في السادس عشر من شوال، فكأن نظام الملك أنطقه الله بسِرِّ الغيب. وكان نظام الملك من نوادر الزمان، وأفراد أهل الفضل والإحسان، ولقد ساسَ أهلَ الدنيا سياسة، وخَلَّدَ الذِّكر الجميل، وادخر الأجر، وأحسن الذّخيرةَ، وكان كما وصفه أمينُ الدولة ابنُ المُوصَلايا[١٦] في قصيدة مطلعها:

ذراهـا في أزمَّـتِـهـا تهـادىَ ... وغـاد بهـا الـثَّـنـايا والـوهـادا
ولـمـا أن تفـرَّدَ بالـمـعـالـي ... وأدركَ مِن هُداهـا ما أرادا
أفـاد معـالَـم الحمـد انتـظامـاً ... وزاد غنـائـمَ الـمـجـد انْـتِضـادا
وقَـوَّم صَوْلَـةَ الـعُـدوان عدلٌ ... أقـامَ به من الـحـقِّ الـعِـمـادا
وخَصَّ مواقـفَ الـتـقـوى بفـعـلٍ ... أمـات الـغَـيَّ واستَحْيا الـرَّشـادا

---

(١٦) أمين الـدولـة بن المـوصـلايا: العـلاء بن الحسن بن وهب البغـدادي أبـو سعـد (١٠٢١-١١٠٤م) (٤١٢-٤٩٧هـ) لقب بأمين الدولة وهو من كتاب العهد العباسي لفتـرة طويلة جداً بدأت منـذ عهد القائم بأمر الله، كان نصرانياً فأسلم عندما ألزمت الذمية بلبس الغيار وهو كالزنار ونحوه.

له رسائل وتوقيعات كثيرة وله لقب آخر: منشىء دار الخلافة، انظر: الزركلي ـ الأعلام ج٥، ص٤٥.